الحياة الأدبية والفكرية والعلمية والفنية في العهد العثماني

أ . الأدب والفكر:

إذا عدنا إلى الحياة الأدبية فإننا نجد بعض المحاولات الطيبة ولكنها لا تدل على نهضة ثقافية، فقد شهد القرن الثامن عشر عملين من كتابة الرّحلات: أحدهما للمفتي المالكي "أحمد بن عمار" الذي سجل ملاحظاته أثناء رحلته إلى مكة، وثانيهما "حسين الورتيلاني" الذي كتب أيضا في رحلته إلى المشرق.

وشهد علوم الفقه وأصول الدين تقدما على يد "عبد الرحمن باش تارزي القسنطيني" والشيخ "عبد العزيز الثميني الميزابي"، أما في الأدب فإننا نجد الشيخ "محمد بوراس الناصري" يخلد شعرا ونثرا انتصار "محمد الكبير" باي وهران على الإسبان سنة 1791، ويسجل فرحة المسلمين بعودة وهران إلى الحكم الإسلامي.

ونتيجة لضعف العربية الفصحى انتشر بين الناس انتشر الأدب الشعبي، الذي أصبح ميدانا للتعبير عن خلجات الشعب في السّراء والضراء، وقد لمعت أسماء أمثال: "ابن مسايب التلمساني" و"سيدي ابن علي" في هذا الميدان، وكلاهما في القرن الثامن عشر. أما في القرن التاسع عشر فنجد شعراء سجلوا بعض خواطرهم في الأحداث الهامة كما فعل الشيخ "عبد القادر الجزائري" في قصيدته عن احتلال الجزائر، والشيخ "قدور ولد محمد" الذي كان يهاجم "الأمير عبد القادر" بينما كان الشيخ "الطاهر بن حواء" ممدحهُ.

وقد وجد الروائيون في أبطال الإسلام والجاهلية كـ "عنترة بن شداد"، وشخصيات يقولون على لسانها أشياء كثيرة كما وجدوا في شخصية "جحا" وسيلة للتعبير عما لا يمكن أن يعبروا عنه واقعيا. أما في ميدان الشعر الفصيح فهناك "الأمير عبد القادر" الذي سجل معاركه وانتصاراته بشعره، وله ديوان مطبوع في هذا الموضوع، وقد كان "حمدان خوجة" يقرض الشعر أيضا، ولكن شعره الذي وصل إلينا ضعيف ومتصنع.

أما الأعمال التاريخية فلم نجد أشياء هامة، ولكن يمكن أن نذكر بعض الأمثلة، من ذلك الرسالة التي كتبها "عبد القادر المشرقي" بعنوان ((بهجة النّاظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر)) والعنوان يدل على المحتوى، والرسالة في حوالي 24 صفحة.

وقد كتب "حمدان خوجة" كتابه ((المرآة)) نشر الجزء الأول ووعد بنشر الجزء الثاني ولكنه لم يظهر، ورغم أن الكتاب مترجم عن العربية فإنه إلى الآن لم يعثر الباحثون على الأصل العربي، والغالب أنه ضاع، و((المرآة)) عمل تاريخي هام يعتبر من أهم الوثائق المعاصرة للاحتلال الفرنسي، وقد كتب من وجهة نظر جزائرية، فهو مصدر من المصادر الضرورية لفهم ردود الفعل التي أحدثها الاحتلال الفرنسي في سنواته الأولى. كما له تأليف أخر بالعربية الذي يحمل عنوان ((إتحاف المنصفين والأدباء)) و"خوجة" في هذا الكتاب يظهر أنه عصري الروح طليق العبارة واسع الاطلاع على أحوال بلاده وعصره. وفي هذا المجال

التاريخ كتب أيضا "أحمد بن المبارك" ((تاريخ قسنطينة))، كما كتب "محمد الصالح العنتري" (تاريخ بايات قسنطينة)).

ب . العلوم:

أما العلوم فقد كانت ضعيفة، وكان باشوات الجزائر يوظفون الأجانب للعناية ببعض الأشياء الدقيقة أو الفنية، ومن ذلك توظيف أحد الفرنسيين للعناية بالساعات الكبيرة التي كانت الدول الأوروبية تهديها إلى الباشا، وتوظيف أجانب آخرين للعناية بالمدفعية، وبناء السفن، ونحو ذلك. وبدل الاهتمام بتكوين الجزائريين من الوجهة الفنية اعتمد الباشوات والمسؤولون العثمانيين على بعض الأرقاء المسيحين الذين كانوا يلبون حاجات الباشا. ومع ذلك فإن الجزائيين قاموا بمساعدة بعض الأجانب ببناء قنطرة وادي الشلف سنة 1814 التي اشترك فيها حوالي 300 من الجزائريين و167 من اليونانيين، وهناك قنطرة وادي الرمل في قسنطينة التي بينت في عهد "صالح باي" التي أشرف عليها "بارثولوميو" الإسباني، وقد أظهر الجزائريون مهارة فائقة في بناء المنازل الجميلة والقصور البديعة، وشبكات المياه والفورات والعيون، وظهر في العهد العثماني تأثير العثمانيين في المساجد، كما ظهر التأثير البيزنطي.

ج . الطب:

لقد أهمل الجزائريون الطب سواء القديم منه أو الأوروبي المعاصر، فلم يكن هناك مستشفيات باستثناء الزوايا التي كانت تأوي العجزة والمرضى، وكان المرجع في هذا الميدان هي كتب الأقدمين كـ "ابن سينا"، وقد كانت فوائد الأعشاب معروفة للناس، فألف الشيخ "عبد الرزاق الجزائري" كتابا في فوائد الأعشاب، ولم يكن هناك امتحان ولا مهنة للأطباء، والذين يقومون بالعلاج هم غالبا مرابطون يدوون بالجن والأرواح، وليس بالعلم، وكان بعض حملة الشهادات الذين يعالجون مرضاهم في دكاكين تشبه دكاكين أصحاب الحرف الأخرى.

أما أعمال الجراحة فكان يقوم بها الحلاقون الذين يلجأون أيضا إلى استعمال الكي، ومنذ القرن السادس عشر كان في مدينة الجزائر مستشفى إسباني خاص بالمسحين، ولم يكن للسلطة العثمانية أي تدخل في مهنة الطب ما عدا تعيين (جراح باشي) الذي كان من الجنود الانكشارية، والذين كان يصحب الجيش في الحملات الكبيرة للعناية بالجرحى.

وفي بعض الأحيان كانت السلطة تستفيد من خبرة الأطباء الأجانب الذين يؤخذون أسرى، فالألمانيّ "بفايفر" أصبح سنة 1825 الطبيب الخاص ورئيس الطباخين في القصر، وعند دخول الفرنسيين سنة 1830 كان "بفايفر" هو الطبيب الوحيد الذي كان يعالج الجرحى الأتراك والأهالي، وقد ترك مذكرات هامة تسجل دخول الفرنسيين وتصف حالة الجزائر عندئذ. ومن جهة أخرى كان لبعض القنصليات أطباء

خاصون، ولعل ضعف الطب هو الذي يفسر ارتفاع نسبة موت الأطفال في الجزائر وانتشار بعض الأمراض المعدية كمرض الزهري الذي جاء به الأوروبيون خلال القرن السادس عشر.

د . الفــن:

رغم القيود الدينية في المجال الفني فإن هناك بعض الفنون قد شهدت تقدما ملحوظا، من ذلك فن العمارة في تلمسان وقسنطينة وبعض مساجد العاصمة، وهناك بعض الصور التي حملها أصحابها من الشّرق إلى الجزائر وقلدها السكان، وقد تقدم فن تزين البيوت من الداخل (الديكور) وظهر فيه الذوق المحلي، وكانت الجزائر تستورد الرخام من إيطاليا، كما كانت تستورد الفسيفساء من تونس وإسبانيا وإيطاليا أيضا، وامتاز قصر "مصطفى باشا" بأعمال الزينة المستوردة من هولندا، وقد ظهرت براعة الجزائريين في الأعمال الخشبية كالأبواب المنقوشة والشّرفات ذات الأعمدة الجذابة، وبالإضافة إلى ذلك امتازوا بأعمال الزرابي ذات الذوق الرّفيع، والفخار الملون الجميل، والطراز بالذهب والفضة.

هـ . الموسيقى:

في ميدان الموسيقى كان الريفيون يستعملون آلات محلية كالبندير والطبلة والقصبة، وكان عرب المدن يستعملون آلات أخرى أكثر دقة كالربابة والقانون والعود والدّربوكة والجواق، وكانت الألحان إما أندلسية وإما محلية متأثرة بها. وكانت هناك فرق موسيقية متعددة تجد مجالها في المقاهي وفي المناسبات الاجتماعية والدينية: الزواج، الطهارة، المولد النبوي، ورمضان.

وكان للأتراك فرق موسيقية خاصة، كما كان للشخص الميسور فرقة خاصة بهم، وهناك فرق موسيقية خاصة بالحملة أو الحملات العسكرية، وكان للباشا نوعان من الموسيقى: موسيقى العشية وموسيقى الصّباح، أما آلات الموسيقى التركية فقد كانت النّاي والغيطة والطّبل، حتى الزّنوج كانت لهم موسيقى خاصة وآلات تكاد تكون خاصة مثل الطّبلة الكبيرة والقراقب والغنبري.

و . الرقـــص:

كان الرقص أيضا شائعا ولكن لدى الممتهنين فقط سواء كانوا رجالا أو نساء، فالرجل المحترم وكذلك المرأة المحترمة لا ترقص على الأقل أمام الناس، وكان الرقص عملا فرديّا، وقد كان الرقص في المدن متأثرا بالرقص الشّرقي، أما الرّقص في الرّيف فقد كان يمتاز بطابع محلي، وفي أحيان كثيرة كانت الراقصة مغنية.